الفصل العاشر

الدعوة إلى اللّه

obeikandl.com

obeikandl.com

مفهوم الدعوة

كثر استعمال كلمة " **الدعوة** " فى المجتمع الإسلامى فى العصر الحديث ؛ إذ تعددت الكتب والنشرات التى تتحدث عن الإسلام فتعرض أحكامه ، وتدافع عن قضاياه تحت عنوان : - **الدعوة الإسلامية** - ، كما حظيت المكتبة الإسلامية بالعديد من الكتب التى تتعرض لمراحل انتشار الإسلام تحت هذا العنوان ، وتنوعت موضوعاتها : المرحلة المكية والمدنية ، وعصر الخلفاء .... و ....و .....إلخ . كذلك ظهرت كليات فى الجامعات الإسلامية تحت هذا العنوان ، وتكونت أقسام للدعوة فى كليات الشريعة وأصول الدين والدراسات الإسلامية . ورغم هذا الطوفان فى استعمال الكلمة ، فلم يحدد حتى الآن مفهومها تحديداً علمياً واضحاً ، ولذلك تراهم يبحثون فى شتى الموضوعات تحت اسم : - **الدعوة** - ، بل وصل الأمر إلى حد أن الباحثين ، عندما يختارون موضوعاً لنيل درجة علمية ، فإنهم يقحمون كلمة - **دعوة** - فى عنوان البحث ، حتى ولو لم يكن له مجال فيه ، وذلك ليضمنوا موافقة الجهات المسئولة على الموضوع ، فترى بحوثاً فى الأديان تحمل اسم الدعوة ، وأخرى فى المجالات الاجتماعية تحمل هذا الاسم ... وهكذا أصبح من الممكن وضع كلمة - **دعوة** - على كل بحث فى جميع مجالات العلوم الإسلامية.

فهل يمكن أن يكون هذا الاستعمال صحيحاً فى مجال البحث العلمى ؟

لو تصفحنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أن كلمة - **دعوة** - ذكرت فى أربع آيات :

الأولى : فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ومعناها فى هذه الآية : الدعاء ، أى الطلب والرجاء من الله ﷻ .

الثانية : فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم : ٢٥] ، وهذه الآية تتعلق بالحشر ، يوم يُدْعَى الأموات للقيام من قبورهم .

فهى فى هاتين الآيتين بعيدة الصلة عن مفهومها فى مجالات الكتب والكليات والأقسام المتخصصة فى حقل الدعوة .

الثالثة : فى قوله تعالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرعد : ١٤] ، ودعوة الحق هنا : التوحيد ، أى أن العبادة ينبغى أن تكون لله وحده ، فلا يشرك معه أحد ، وإلا خاب وخسر مَنْ عبد إلهاً غير الله ، أو تقرب إلى آلهة مع الله .

والرابعة فى قوله تعالى : ﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [غافر: ٤١ – ٤٣] . ومعنى " **دعوة** " فى هذه الآية : أن الوثن ليس له شيء كما قال مجاهد . وقال قتادة : إن الوثن لا ينفع ولا يضر . وقال السدى : لا يجيب داعيه ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ومن هنا يتبين أن كلمات الدعوة التى ذُكِرَت فى القرآن الكريم لا تنطبق على المجالات التى يتحرك فيها القائمون على الدعوة ، سواء كان بحثاً ، أو دراسة ، أو نشاطاً فى مجال التوجيه والتعليم ، اللهم إلا إذا كان ذلك من باب بيان ما تتضمنه تعاليم الإسلام وشرائعه ،

من أن الله يجيب دعاء من يتوجه إليه بالطلب ، أو شرح ما تتضمنه نصيحة مؤمن آل فرعون لقومه بأن ما يعبد من دون الله لا يضر ولا ينفع ، لأنه لا حول له ولا طول ، أو تذكير الناس بأن الله سوف يدعوهم من قبورهم يوم الحشر ، وهذه كلها لا تخرج عن كونها جزئيات لا تصلح أن تكون مصطلحاً عاماً ، يندرج تحته كل نشاط فى مجال الإسلام من بحث ودراسة ووعظ وإرشاد ، وغير ذلك مما تتضمنه عملية تبليغ الناس بأحكام الإسلام وتعاليمه .

وعليه فلم يبق من الآيات القرآنية التى ذُكِرَت فيها كلمة " **دعوة** " سوى آية الرعد : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ ، إذ يمكن أن يقال فى تفسيرها : إنها الإسلام ، فدعوة الحق صفة رسالة الإسلام ، أى أن الإسلام هو الدعوة الصحيحة ، وما عداه فهم باطل ، وتعاليمه هى التى يجب على الناس أن يتبعوها ولا يتبعوا غيرها ، فتتفرق بهم السبل ، ويصيروا شيعاً وأحزاباً يضرب بعضهم بعضاً .

وجاء فى القرآن الكريم تصاريف عدة لكلمة : " **دعوة** " ، وبمعانٍ متعددة ، غير أن ما يجدر ذكره فى هذا المقام ثلاث : ، لأن لها صلة بحديثنا :

المعنى الأول : الغبادة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، أى ولا تسبوا الذين يعبدون غير الله ، فيسبوا الله .

المعنى الثانى : الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الأعراف : ١٩٣] ، أى أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها : من دعاها ومن دحاها ، لأنها لا تسمع ولا تبصر ، ولا تقدر على شيء على الإطلاق ، فكيف تلبى طلب الطالب ، أو تجيب دعاء الداعى .

المعنى الثالث : التبليغ ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت : ٣٣] ، أى ومن أحسن ممن يبلغ رسالة الله إلى الناس ، فيدعوهم إلى عبادة ربهم .

وتدور هذه المعانى حول محور واحد ، وهو المعبود ، سواء كان ذلك من جانب الاعتقاد به ، أو رجائه والطلب منه ، أو الدعوة إليه . لكن الذى سنركز عليه هو **المعنى الثالث** ، وهو الدعوة إليه . فمفهوم الدعوة : هم حث الناس على الخير الذى أمر الله به ، وإقناعهم بمبادئ الإسلام ، لأنها هى الطريق الذى يهدى الناس إلى ما فيه صلاحهم فى الدنيا وفلاحهم فى الآخرة . غير أن هذا الاستعمال لم يكن معروفاً فى صدر الإسلام ، فقد استخدم المسلمون كلمات أخرى لتأدية هذا المفهوم ، وهى :

١. **الوعظ** : وهو النصح بالخير على وجه يرق له قلب السامع ، وفى أسلوب يحمله على قبول الحق ، والعمل به . وقد عرفه العلماء بأنه القول الحق الذى يلين القلوب ، ويؤثر فى النفوس ، ويكبح جماح النفوس المتمردة ، ويزيد النفوس المهذبة إيماناً وهداية .

٢. **التذكير** : وهو تعريف الناس بنعم الله ، مع بيان وجوب قيام الإنسان بشكره تعالى على هذه النعم ، والتحذير من مخالفة أوامر الله ، تجنباً للعقاب ، فقد قال تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٥﴾ ﴾[إبراهيم : ٥] ، وقال : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات : ٥٥]

٣. **الإرشاد** : وهو هداية الناس إلى الصراط المستقيم ، وذلك بتبصيرهم بما يجب عليهم عمله فى مجال العبادات والمعاملات ، وحثهم على فعل الخير فى مجالات السلوك والعلاقات الاجتماعية .

٤. **البشارة** : وهى الإخبار بما يدخل السرور والانشراح فى الصدور ، يقول تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: ١٧ – ١٨] ، وقال رسول الله ﷺ : "**بشروا ولا تنفروا**".

٥. **الترغيب** : وهو إخبار الناس بالجزاء الذى أعده الله لهم يوم القيامة ، إن هم التزموا أوامر الله ، واجتنبوا نواهيه ، ويدخل فيه أيضاً : إقناعهم بأن الله سيسهل لهم أمور الحياة لو ساروا على طريقه ، وطبقوا تعاليمه .

٦. **الترهيب** : وهو بيان ما أعده الله للعصاة من عقاب ، لزجر الناس عن ارتكاب المعاصى ، فإنه تعالى حذر عباده من معصيته ، وضرب لهم الأمثال ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف : ٥٥] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف : ١٦٦]

ولا تخرج كلمة "**الحسبة**" عن هذه المعانى المتعلقة بالدعوة إلى الله والنهى عما يغضبه ؛ إذ هى مراقبة الناس فى أقوالهم وأفعالهم ، والأخذ على يد كل من يرتكب إثماً ، أو يعمل عملاً خارجاً عن حدود الله . فالمحتسب : هو من يقوم بالرقابة على أنشطة الناس ، وخاصة فى الأسواق ، إذ اشتهر عمله فى مراقبة الموازين والمكاييل وأسعار السلع ، بحيث لا يتعدى أحد على حدود الله فيها .

استعمل المسلمون هذه المصطلحات فى مجال الدعوة إلى الله ، ولذلك أطلقوا على من يعمل فى هذا المجال : واعظ ، وهو الذى يعظ الناس ويدعوهم باللطف والعطف . ولم يخصص ولى الأمر أحداً لهذا العمل ، بل كان واجب كل مسلم ومسلمة ، إنطلاقاً من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى كلف الله به كل الناس ، فعن رسول الله ﷺ أنه

قال : **" لتأمرن بالمعروف أو لتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم . ومن رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ".**

أما عمل المحتسب فلا يقوم به أحد إلا بتكليف من ولى الأمر ، لأن عمله أقرب إلى عمل الشرطى منه إلى الواعظ ، إذ أنه يراقب الأحكام والأوامر بإذن من الوالى ، فهو معاون له وللقاضى فى تنفيذ ما يقرره الوالى ، وما يقضى به القاضى .

ثقافة الداعية

اختلفت مهمة الواعظ عما ينبغى أن يؤديه المحتسب ، إذ المحتسب موظف لدى الدولة ، ينفذ ما يصدر إليه من أوامر ، ويراقب الناس فى تنفيذ القوانين والأحكام ، أما الواعظ فلم يكن فى صدر الإسلام موظفاً يأتمر بأوامر السلطة التنفيذية ، أو يتبع سلطة القضاة ، بل كان عمله حراً نابعاً من شعوره بتأدية ما أمر الله به فى مجال الدعوة إلى دينه لحمل الناس على اعتناق الإسلام ، أو لهداية المسلمين إلى أحكام دين الله . ولذا كان عمله تفسيراً لكتاب الله ، واستنباطاً للأحكام الشرعية من القرآن والسنة ، وترغيباً للناس فى اتباع طريق الهدى ، وتنفيراً لهم من طريق الشيطان . فهو يترسم خطى رسول الله ﷺ فى تبليغ الناس دعوة الله ، تنفيذاً لأمره فى قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . وتطبيقاً لأمر الله رسوله فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل : ١٢٥]

فالداعية مُبَلِّغ دعوة الله للناس كافة ، ومُفَسِّر لكتابه ، ومُوَضِّح لحديث رسوله ﷺ ، وشارح سنته . وعليه فيجب أن يتبع المنهج الذى رسمته الآية الكريمة ، فيخاطب الكفار بالأسلوب العقلى ، ويمحو أمية المسلمين ، ويبعث فيهم روح العقيدة ، ويقوى لديهم عاطفة الإيمان بالموعظة الحسنة . أما أولئك الذين تنكبو الطريق فضلوا عن سبيل الله ،

وحاولوا إضلال غيرهم ، فيجب على الدعاة أن يجادلوهم بالتى هى أحسن ، فإن كانت الظروف تقتضى الاستشهاد بأحداث التاريخ ، وما جرى بين الأنبياء السابقين وأقوامهم ، فيجب عليهم سلوك هذا المنهج مع هؤلاء المنكرين ، وإن اضطروا لاستخدام أسلوب آخر فعليهم استخدامه ، لأن الآية تركت لهم تقدير ما يتناسب مع الظروف والأحوال ، حين أمرتهم أن يجادلوا بالتى هى أحسن .

ولما كانت الآية قد رسمت للدعوة ثلاثة مناهج هى :

١. المنطق والعقل ،

٢. الموعظة الحسنة ، ويتحقق ذلك بشرح كتاب الله وسنة رسوله ،

٣. المجادلة ، وهى محاورة الخصم بما يتناسب مع الظروف والأحوال ،

وجب أن تكون ثقافة الداعية على نحو يؤهله للقيام بهذه المهمة على أكمل وجه ، فدعوة غير المسلمين إلى الإسلام تقتضى أن يكون الداعية ملماً بثقافة من يدعوهم ، مدركاً لأساليب تفكيرهم ، محيطاً بتقاليدهم وعاداتهم ، متقناً للتيارات الفكرية المعاصرة . كما أن من الضرورات أن يلم الداعية بعلم النفس ، كى يقف على أسباب معارضة من يعارضه من الجانب النفسى ، لأن من لا يعرف تقلبات النفس وهواها ، لا يحسن دعوتها إلى الخير . وقد كان الدعاة الأُوَل على قدر كبير — بفطرتهم — من علم النفس ، وإن لم يتدارسوه ، فإنهم كانوا بسلامة فطرتهم ، وذكاء قريحتهم ، وبما هداهم القرآن الكريم بآياته والرسول ببيانه وبصيرته ، قادرين على إقناع الناس بالإسلام ، فدخلت شعوب عديدة إلى الإسلام بفضل مجهودهم فى مجال الدعوة ، فهدى الله على أيديهم كثيراً ممن عاندوا وكابروا ، وذلك بسبب ما آتاهم الله من قوة فى الجدل ، وفصاحة فى البيان . فلو أراد الدعاة المعاصرون نجاحاً مثل هذا النجاح ، أو مقارباً له ، فإن عليهم دراسة :

- **التاريخ** ، ليقفوا على أسباب ومصادر الفساد فى العقائد والأخلاق والعبادات فيبنوا دعوتهم على أساس سليم .

- **علم النفس** ، ليتمكنوا من مخاطبة جميع الطبقات البشرية بالأسلوب الملائم لهم .

- **علم الشعوب والأقوام** ، ليعدوا لكل بلد عدته ، حين يوجهون الدعوة إلى سكانه .
- **علم الأخلاق** ، ليقفوا على الفضائل النفسية ، وكيفية تربية المرء عليها ، ويعرفوا نقائص النفس وطرق الوقاية منها ، وهذا من أكثر العلوم لزوماً للدعاة ، كى يستطيعوا معالجة النفس وتهذيبها .
- **الملل والنحل** ، ليتيسر لهم بيان ما فيها من باطل ، لأنهم إن عجزوا عن بيان ذلك لمن يدعوهم إلى الإسلام ، فلن يجدوا آذاناً تصغى إلى ما يقولونه عن الإسلام .
- **العلم بلغات من يوجهون الدعوة لهم** ، فقد ورد أن الرسول ﷺ أمر بعض الصحابة بتعلم اللغة العبرية لأجل اليهود ، الذين كانوا مجاورين فى المدينة ، لأن معرفة لغة المدعوين تحدث من التأثير ما لا يتحقق عند عدم معرفة اللغة ، ويجب أن يكون معرفتها بدرجة ممتازة ، لأن ضعف لغة المتحدث تعكس آثاراً سلبية على حجة الداعية .
- **علم الاجتماع** ، ليعرفوا أحوال الأمم ، ويقفوا على أسباب ضعفها وقوتها ، وتأخرها وتقدمها ، إذ يلزم أن يكون الداعية عالماً بأحوال الناس ، خبيراً بأمراض الاجتماع ، ليدعو ويرشد كل فريق بما يناسبه ، فإن كان يجهل أحوال الناس وعللهم أخطأ كثيراً فى إصلاح القلوب ، وعلاج النفوس ، وكان كمتطبب جرب دواءً فى مرض خاص فنجح ، فصار يصف ذلك الدواء بعينه لكل مريض ، وخطر ذلك على الأبدان جسيم ، فكذا على القلوب .

obeikandl.com

فإذا كان المجتمع الإسلامى هو مجال الداعية ، فبضاعته شرح الكتاب والسنة ، لبيان ما يجب على المسلمين عمله فى مجال العبادات والمعاملات ، وعند الاقتضاء يوضح لهم قضايا التوحيد من الكتاب والسنة ، بعيداً عن آراء المتكلمين ، وخلافات أصحاب المذاهب من فقهاء ومحدثين . فالداعية بين المسلمين معلم لهم ، ولذا يجب عليه معرفة العلوم الدينية ، فيلم بآيات التوحيد فى القرآن الكريم ، ويقف على أحاديث الرسول ﷺ التى تساعده على شرح أسرارها ، وبيان دقائقها ، كما ينبغى أن يكون على دراية باستخدام الأساليب العقلية فى الاستشهاد بالآيات الكونية الدالة على وحدانية الله ، وتفرده بالسلطة ، والهيمنة على ما يقع فى الكون كله .

وفى مجال العبادات ، لابد له من دراسة الفقه وأصوله ، ليتمكن من بيان أحكامها للناس ، حتى يسهم فى إزالة أميتهم الدينية . ومما لاشك فيه أن هذا هو المجال الرئيسى للداعية بين المسلمين ، إذ أن أكثر اهتماماتهم فى المجال الدينى ، هو معرفة : أحكام الطهارة ، وكيفية أداء الصلاة ، وأحكام الصيام وآدابه ، ونصاب الزكاة ومصارفها ، وأركان الحج وواجباته . كما أنهم كثيراً ما يستفسرون عن شرع الله وحكمه فى الزواج والطلاق والميراث ، ويسألون عن الحلال والحرام فى المعاملات بجميع أنواعها ، كما يحرصون على الوصول إلى القول الفصل فيما يثار حول الحدود من شبهات . وكلما كان الداعية أرسخ قدماً فى مجال المسائل الفقهية ، وأكثر إحاطة بأحكام الكتاب والسنة كلما كان أكثر قدرة على القيام بمهمة الدعوة فى المجتمع الإسلامى . ولذا ينبغى على معاهد الدعوة التركيز على تعليم المنتسبين إليها من العلوم الشرعية ما يؤهلهم للقيام بمهمتهم على أكمل وجه ، فيدرسون لهم من الفقه ما يمكنهم من التصدى للفُتْيا ، ومن التفسير ما يعينهم على معرفة أحكام الله ، كما يجب عليهم دراسة التاريخ الإسلامى ، والسيرة النبوية ، وسيرة الخلفاء الراشدين ، وغيرهم من عظماء الأمة الإسلامية ، كى يقفوا على سر نبوغهم ، وأسباب قدرتهم على ما أجزلوا من عطاء للمجتمع الإسلامى ، حتى يكون ذلك نبراساً لهم ولغيرهم ، ومادة يستعينون بها فى مجال الدعوة .

فمهمة الواعظ من أكبر المهام ، ووظيفته من أعظم الوظائف ، ومركز الداعية فى الأمة لا يقل أهمية عن مركز القواد المجاهدين ، والعظماء العاملين ، فكما أن نجاح القائد يتوقف على درجة إعداده ، ومدى إمكاناته فى مجال التحطيط والتدبير ، وبعد النظر وأصالة الرأى ، فكذلك نجاح الداعية ، يتوقف على تمكنه من العلوم الشرعية ، والأخلاق الدينية ، وعلى مدى معرفته بعلوم الاجتماع والعلوم الكونية ، ومدى إمكاناته فى ربط ما ورد فى القرآن الكريم من مظاهر الكون ولآياته بما لدى المتخصصين فى هذا المجال من نظريات وآراء ، لأن جهل الواعظ بهذه الأمور الأولية ، يجعله عاجزاً عن تفسير ما جاء فى القرآن الكريم من آيات كونية على وجه لا يتنافى مع المسلمات فى هذا المجال . ومما لاشك فيه أن ظهور جهل الداعية بأمور يعلمها صغار التلاميذ يعطى الفرصة للمتندرين بالواعظ ، والجاحدين لآيات الله للاستهزاء به ، فتضعف ثقة الناس فى كلامه ، فلا يصدقون ما يقوله ، وبالتالى لا يذعنون لما يأمرهم به ، فيصير بذلك أداة تنفير من تعاليم الإسلام ، بدل أن يكون عمله عاملاً من عوامل الترغيب فى تنفيذ أحكام الله .

وجملة القول : أنه يجب على الداعية — أو الواعظ حسب الاصطلاح المستخدم — أن يدرس الفقه دراسة عميقة ، وأن يعرف فقه الكتاب والسنة ، وأن يلم بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامى ، كما يجب أن يعرف مبادئ علم الاجتماع ، وعلوم الكون ، كى يؤدى مهمته على أكمل وجه ، وإلا طاشت كلماته ، وضلت توجيهاته ، وصار أضحوكة يتندر به المتفكهون ، ويستشهد بعجزه المنحرفون وأعداء الإسلام .

من صور المجادلة والمحاورة

أثبتت دراسة التاريخ أن كل مجتمع بشرى يضم بين جنباته اتجاهات فكرية متعددة ، تتراوح فى مضمونها وأهدافها بين أقصى اليمين وأقصى اليسار . ولذلك كان رد الفعل لكل دعوة متفاوتاً ، فمنهم من يؤمن بها بمجرد سماعه نداء صاحبها ، ومنهم من يتردد فترة من الزمن . وتختلف فترة التردد من شخص لآخر نظراً لتركيبته الفكرية والثقافية ، والظروف

الاجتماعية والبيئية ، أو لمدى اقتناعه بدين آبائه وأجداده ، وطبيعة هذا الدين من ناحية معطياته لمتطلبات الحياة المختلفة .

ولقد أخذت المحاورات مع هذا الصنف المتردد وقتاً كبيراً من زمن الدعاة ، واحتلت مساحات كبيرة من صفحات الدعوة ، إذ كلما كان المدعوين ملتصقين بماضيهم ، ومستعبدين لعاداتهم البالية ، وتقاليدهم المستهجنة ، كلما امتد الجدل وأخذ صوراً متعددة ، وألواناً مختلفة من الحوار والمناورة . وتنبئنا أخبار الدعاة المسجلة فى صفحات التاريخ أن أطول حوار وأقساه كان مع المعاندين الذين استولت أفكار الماضى على عقولهم ، وتمكنت عقائد الآباء من أفئدتهم وأرواحهم ، ولهذا رأينا الأنبياء يسلكون معهم كل طريق يؤدى إلى إقناعهم وحملهم على عبادة الله ، وترك ضلالاتهم . ومن أمثلة ذلك ما حدثنا القرآن الكريم عن حوار إبراهيم مع قومه حول عبادة الأصنام ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ

رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء : ٥١ – ٦٧]

كما يحكى القرآن الكريم صورة أخرى من صور حواره مع المشركين ، فيقول تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنعام : ٧٤ – ٨١]

تعددت صور الجدل والمحاورة مع من يصر على عدم الإيمان ، ويحاول بضلالاته أن يوقف زحف الدعوة الجديدة فى المجتمع . وما ضَرْب القرآن الكريم هذه الأمثال إلا لتسلية

الرسول ﷺ وإدخال الطمأنينة فى قلبه ، ذلك أنه بيَّن له فيها أنه مهما أوذى الرسل وعورضوا ، فإن النصر سيكون لهم ، سواء فى مجال الجدل الكلامى ، أو فى صراع القوى فى ساحة القتال . ولما كانت المجتمعات الإنسانية متشابهة فى هذا المجال ، إذ لايختلف قديمها عن حديثها ، ولا يتمايز متحضرها عن بدائيها ، كان من المؤكد أن يظهر فى كل عصر معارضون للدين ، ومناوئون لدعاته ، يبثون أفكارهم فى المجتمع ، مستخدمين شتى الطرق للتشويش على أصوات الدعاة ، وتشويه صورهم أمام الشباب ، فإذا لم يكن الدعاة مسلحين للمواجهة خسروا المعركة ، وباءوا بالخيبة والخسران.

وهذا هو المجال الثالث الذى يجب أن يتسلح له الداعية ، وإلا نزل المعركة خاوياً ، فيتخذ المناوئون جهله مادة لتقوية ادعائهم ، ودليلاً على قوة حجتهم . ولهذا كان على الدعاة أن يدرسوا التيارات الفكرية المعاصرة ، ويقفوا على دقائقها ، ويعرفوا كلياتها وجزئياتها ، فيدرسوا الاتجاهات الفلسفية ، ويعرفوا النظريات الاجتماعية والتربوية ، ويلموا بالمذاهب الاقتصادية ، لكى يجادلوا كلاً بما عنده ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥]

وقد تأخذ المجادلة بالحسنى صورة أخرى ، وذلك فى حال الاضطرار إلى الدفاع عن الإسلام بالقوة ، وسوف نبين ذلك فيما بعد عند الحديث عما يجب على كل مسلم — أياً كانت ثقافته ، وأينما كان مركز نشاطه فى المجتمع — فى مجال الدعوة .

فى مجالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

اتفق الباحثون على تقسيم الأديان من حيث نشاط الأتباع فى مجال الدعوة إليها إلى قسمين : قسم انطوى أتباعه على أنفسهم ، فهم لا يدعون غيرهم إلى الدخول فى عقيدتهم ، انطلاقاً من أنه خاص بهم لا يشاركهم فيه أحد ، فهم لا يسعون إلى إقناع الآخرين بعقيدتهم ، بل إنهم يرفضون دخول أحد فى دينهم ، وقد أطلق علماء الأديان على مثل هذه

العقيدة : دين غير مختص ، ويقصدون بذلك أنه غير مختص برسالة يقوم أتباعه على نشرها بين البشر كاليهودية ، والبرهمية ، والزرادشتية .

أما القسم الآخر ، وهو ما جاء فى نصوصه المقدسة ما يدعو أتباعه إلى العمل على نشره بين الناس ، فيطلق علماء الأديان عليه : دين مختص برسالة ، أى أن أتباعه مكلفون بنشر رسالتهم الدينية بين الناس ، وذكروا أن من هذا القسم : البوذية ، والمسيحية ، والإسلام . وقد وضح " ماكس موللر " المقصود بدين الرسالة بقوله : " إنه الدين الذى يسمو فيه نشر الحق ، وهداية الكفار إلى واجب مقدس ، على يد مؤسس الدين ، أو خلفائه من بعده .... إنها روح الحق فى قلوب المؤمنين التى لا تستقر حتى تتجلى فى الفكر ، والقول ، والعمل . ولا تقنع حتى تؤدى رسالتها إلى كل نفس إنسانية ، وتعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما تعتقد أنه الحق ".

وإذا كانت البوذية والمسيحية قد شاركتا الإسلام فى هذا المجال ، إلا أن هذه المشاركة جاءت اعتماداً على نص أو نصين من نصوصهما " المقدسة " ، أى أنها مشاركة واهية ، لأن الدعوة إلى الإسلام هى من صميم العقيدة الإسلامية ، فهى فرض على كل مسلم ومسلمة ، يدل على ذلك أن الآيات القرآنية التى حثت المسلم على الدعوة إلى الله كثيرة كثرة لا يدانى القرآن الكريم فيها النصوص " المقدسة " لهذين الدينين ؛ فقد أمر الله ﷻ المسلم فى كثير من الآيات بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، وقال : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [آل عمران : ١١٣ – ١١٤] ، وقال :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة : ٧١] ، بل إنه بيَّن للمؤمنين أن من لم يقم بهذا الواجب ، سوف تُصَبّ عليه لعنات الله ، كما حدث لبنى إسرائيل عندما أهملوا هذا الواجب ، فقال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة : ٧٨ – ٧٩]

كما بَيَّن للمسلمين أنهم ما كانوا خير أمة على وجه الأرض إلا بما يبذلون من جهد فى مجال الدعوة إلى الله ، فقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، فمن واجباتهم الدينية فى هذه الحياة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج : ٤١]

ومما يدل على أهمية هذا الواجب أن الله جعله أفضل من العبادة ، بل إنه ربط حصول العابد على ثواب عبادته من الله بإيجابيته فى مجال الخير الاجتماعى ، فقال تعالى : ﴿ لَّا

خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء : ١١٤] . كما فرض على المسلمين أن يصلحوا بين المتخاصمين فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات : ٩] ، وهذا هو من صميم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويتضح من هذا أن الدعوة إلى الله ركن أساسى فى الإسلام ، لا يتقاعس عنه ، ولا يهمل فى أدائه إلا من ضعف الإيمان فى قلبه من جراء الاستغراق فى بحار المادة التى تبعده أمواجها عن شاطئ الأمان : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت : ٣٢] .

وقد وردت أحاديث عدة تؤكد ما جاء فى القرآن الكريم من وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحذر المسلمين من الإهمال فى هذا الواجب فى حياتهم ، فقد روى عن أبى بكر الصديق ﷺ أنه قال فى خطبة خطبها : أيها الناس ! إنكم تقرءون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها ، وهى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة : ١٠٥] ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **ما من قوم عملوا بالمعاصى ، وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل ، إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده** ." وروى عن أبى ثعلبة الخشنى أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى : ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ ، فقال : " **يا أبا ثعلبة ! مر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، فإذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى**

متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام".

وجاء فى السنة ما يفيد أن النكبات تنزل بكل قوم تنكروا لهذا المبدأ الإسلامى وأهملوه ، فقد قال ﷺ : " **لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم".**

كما ورد أن أعمال الخير تتضاءل أمام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال : " **ما أعمال البر عند الجهاد فى سبيل الله ، إلا كنفثة فى بحر لجى ، وما جميع أعمال البر والجهاد فى سبيل الله عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلا كنفثة فى بحر لجى**" ، وقال أبو عبيدة بن الجراح : قلت يارسول الله! أ ى الشهداء أكرم على الله ﷻ ؟ قال : " **رجل قام إلى والٍ جائر ، فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله ، فإن لم يقتله ، فإن القلو لا يجرى عليه بعد ذلك ، وإن عاش ما عاش**" ، وقال الحسن البصرى : قال رسول الله ﷺ : " **أفضل شهداء أمتى رجل قام إلى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك ، فذلك الشهيد ، منزلته فى الجنة بين حمزة و جعفر".**

ولعظم مكانة هذا العمل وسمو منزلته بين جميع أنشطة الإنسان فى حياته ، يعفو الله عما يُرتَكَب فى سبيله من هنات ، فقد قال رسول الله ﷺ : " **إياكم والجلوس الطرقات**" ، قالوا : ما لنا بد ، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها ، قال : " **فإذا أبيتم إلا ذلك ، فأعطوا الطريق حقها**" ، وما حق الطريق ؟ قال : " **غض الصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر".**

تجاوب المسلمون مع ما أمر به القرآن الكريم ، وأكدته الأحاديث النبوية فحملوا عقيدتهم ، وانطلقوا بها إلى آفاق الأرض يدعون إلى الله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فامتد نشاطهم من شمال الأرض إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها ، حتى وصلت طوائف الدعاة إلى الصين وروسيا . ونشطوا فى دعوة الناس إلى الله ، فدخل خلق كثير فى دين الله ، وأصبحنا نرى مسلمين فى كل مكان من سطح الكرة الأرضية ، حتى أصبح للإسلام أتباع فى أمريكا ، واستراليا واليابان ، وسيبريا ، وفى معظم الجزر المنتشرة فى بحار ومحيطات العالم ، وما ذاك إلا بجهود الدعاة وتفانيهم فى خدمة نشر الإسلام .

فإذا جاء التعبير فى القرآن الكريم عن وجوب الدعوة إلى الله واضحاً ، فإن عمل الدعاة لا يقل وضوحاً عن امتثال المسلمين لأمر الله ﷻ فى هذا المجال ، بل إنهم صبروا و صابروا فى عملهم تأسياً برسول الله ﷺ ، وترسماً لخطاه فى دعوته إلى الله تحقيقاً لقوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

لقد ضربوا المثل الأعلى فى مجال الدعوة ، إذ أوقفوا حياتهم عليها ، وضحوا بطيبات الحياة فى سبيلها ، وتنازلوا عن كثير من رفاهية العيش بغية الحصول على ثواب الله على عملهم فى مجال هو أشرف مجالات العمل الإنسانى ، إنه الدعوة إلى الله ، فهو عمل الأنبياء والمرسلين ، وما أسعد الإنسان عندما يشعر أنه يقوم بما قام به من اصطفاهم الله على العالمين ، فهم عند الله من الأخيار المقربين .

ولا يقتصر مفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الإسلام على خطبة تلقى على جماهير الناس ، أو درس يلقن لهم ، أو نصيحة تُؤَدَّى بين الحين والآخر ، بل يشمل المعروف كل قول ، أو فعل ، ينبغى قوله أو فعله ، طبقاً لنصوص الشريعة الإسلامية ومبادئها العامة ، وروحها ، كالتخلق بالأخلاق الفاضلة ، والعفو عند المقدرة ، والإصلاح بين المتخاصمين ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وإقامة المعاهد والملاجئ والمستشفيات ، ونصرة المظلوم ، والتسوية بين الخصوم فى الحكم ، والدعوة إلى الشورى ، والخضوع لرأى الجماعة ، وتنفيذ مشيئتها ، وصرف الأموال العامة .... وغير ذلك من الأعمال التى تسهم فى خدمة الفرد والمجتمع ، بحيث تسير الحياة وفقاً لنظام التشريع الإسلامى .

أما المنكر الذى يجب محاربته ، فهو كل معصية حرمتها الشريعة الإسلامية ، سواء وقعت من مكلف ، أو غير مكلف ، فمن رأى صبياً ، أو مجنوناً يشرب خمراً ، فعليه أن يمنعه ويريق خمره ، ويتخذ من الإجراءات ما يساعد على تأديبه وإبعاده عن معصية الله . أما إذا كان مرتكب المعصية مكلفاً ، فينبغى زجره بما يتناسب مع الظروف ، ونوع المعصية التى

يرتكبها ، فقد يكون الزجر بالقول كالنهى عن شرب الخمر ، وقد يكون بالفعل كإراقة الخمر ، أو منع شاربها بالقوة ، أو اتخاذ الإجراءات القانونية لعقابه . فإذا كان قولاً فهو النهى عن المنكر ، وإذا كان عملاً فهو تغيير المنكر ، وإذا انتقل إلى مرحلة تنفيذ العقوبة الشرعية فى مرتكب المنكر ، كان حماية ووقاية للمجتمع .

ولذا فليس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عمل فرد بعينه ، أو وظيفة طبقة معينة فى المجتمع ، بل كل مسلم مكلف بالقيام بهذا العمل ، مهما كان وضعه فى المجتمع ، فالحكومة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر والجماعات تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، والأفراد يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وبذلك يستقر أمر الخير بين الجماعة ، ويقضى على المنكر والفساد بتعاون الصغير والكبير ، والحاكم والمحكوم .

غير أن كل فرد مطالب بهذا الأمر على قدر استطاعته ، وفى حدود إمكانات وضعه فى المجتمع ؛ فالعالم مجاله : القول والنصيحة ، وتعليم الناس ما عليهم من فروض وواجبات . والحاكم عليه أن يأخذ على أيدى المخالفين لأمر الله ، وذلك بما لديه من قوة تنفيذ الأحكام . وما عداهما ينصح بالقول فيما يستطيع النصح فيه ، بالإضافة إلى أن على كل مسلم — عالم أو جاهل ، راعى أو من الرعية — أن يكون فى عمله وسلوكه دعوة إلى الله ، وذلك بالتزامه بالعمل الطيب ، وتجنبه كل ما ينكره العقل ، وتنهى عنه الشريعة .

وعلى الرغم من أن الدعوه إلى الله — أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — واجب على كل مسلم ، إلا أن الفقهاء اشترطوا فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون مكلفاً ، أى مدركاً مختاراً ، وأن يكون مؤمناً بالدين الإسلامى ، فالمسلم وحده هو الذى يقع على عاتقه واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أما غير المسلم فلا يلتزم بهذا الواجب .

وقد روعى فى اشتراط هذا الشرط ترك الحرية التامة لغير المسلم فى أن يعتقد ما شاء ، وحمايته من الإكراه على اعتناق ما يخالف عقيدته ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يدخل فيه الأمر بكل ما أوجبت الشريعة عمله ، أو حببت للناس فعله من : صلاة ، وصيام ، وحج ، وتوحيد ، وغير ذلك . والنهى عن المنكر يدخل فيه النهى عن كل ما

خالف الشريعة من أفعال وعقائد ، فيدخل فيه النهى عن التثليث ، وعن القول بصلب المسيح وقتله ، ويدخل فيه النهى عن الترهب وعن شرب الخمر ، وعن أكل لحم الخنزير ، وغير ذلك مما تخالف فيه الشريعة الإسلامية الأديان الأخرى . فلو أُلْزِم غير المسلم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأُلْزِم بما يقول به المسلم ، وبأن يعتقد ما يعتقده المسلم ، ولأُلْزِم بأن يبطل عقيدته الدينية ، ويظهر عقيدة الإسلام ، وهذا هو الإكراه فى الدين الذى تحرمه الشريعة الإسلامية فى قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، فمن أجل حماية حرية العقيدة جعل هذا الواجب على المسلم دون غيره .

ولا يطلب من المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا إذا كان قادراً على التأثير فى هذا الميدان ، فإن عجز فليس عليه سوى الإنكار بالقلب ، أى ينكر المعاصى ، ويستنكر سلوك الأشرار والمفسدين فى الأرض ، ولا يقيم أى علاقة مع من يعيث فى الأرض فساداً ، أو يساعد على ارتكاب المعاصى .

ولا يسقط عن المسلم واجب الدعوة إلى الله بسبب العجز الحسى فقط ، بل كل ما يمكن أن يلحق به ضرر يسقط عنه هذا الواجب ، فلو خاف من بطش حاكم ، أو إيذاء متجبر فى الأرض ، وكان متأكداً من البطش الذى يؤدى إلى هلاكه سقط عنه الوجوب . كذلك من تأكد من أن أمره ، أو نهيه لن ينفع ، وأنه سيضرب إذا تكلم ، لم يجب عليه أمر أو نهى ، وعليه أن يكره المعصية فقط ، وينكرها بقلبه ، ويقاطع فاعليها ، وأن لا يحضر مواضع المعاصى والمناكر .

ومن علم أن نهيه — إذا نهى عن المنكر — سيؤدى إلى إزالته ، أو إلى أن يزول ويخلفه ما هو أقل منه رتبة ، فقد وجب عليه النهى عن المنكر . أما إذا تأكد أن نهيه عن المنكر سيؤدى إلى منكر آخر فى نفس درجته ، فهو بالخيار ، إن شاء منع المنكر ونهى عنه ، وإن شاء تركه بحسب ما يؤديه إله اجتهاده . أما إذا علم أن إزالته المنكر ستؤدى إلى ما هو أشر منه ، فقد سقط عنه الواجب ، بل حرم عليه النهى . ومن أمثلة ذلك لو رأى شخصاً يشرب شراباً حلالاً ، لكنه نجس بسبب وقوع نجاسة فيه ، فالمفروض أنه ينهاه من تناول هذا الشراب ، لكنه لو علم أن هذا الشخص، لو امتنع عن تناول الشراب النجس سوف ينصرف إلى

شرب الخمر ، فلا فائدة من منعه من شرب النجس وإزالته ، لأنه سيترتب عليه ارتكاب معصية أكبر ، وهى شرب الخمر . فقد روى أن ابن تيمية مر مع بعض أصحابه فى زمن التتار بقوم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم أصحاب ابن تيمية شرب الخمر ، ولكن ابن تيمية أنكر على أصحابه قولهم ، وقال لهم : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس ، وسبى الذرارى ، وأخذ أموال الناس ، فدعوهم وخمرهم .

وقد لايكون العجز راجعاً إلى خوف من أذى ، أو خشية من رد فعل ذى آثار سيئة أشد وأكبر ، بل إلى عدم القدرة المسلم العلمية على مواجهة المنكر ، أو بيان الجوانب الإيجابية فى الإسلام فى مواجهة الأفكار الدخيلة ، فإن كان عامياً فلا يجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا فى المسائل المشهورة لدى العامة كشرب الخمر ، والزنا ، وترك الصلاة ، والسرقة ...,, وغيرها من الأمور التى لا تخفى على عوام المسلمين . أما ماعدا ذلك فلا يجب على العامى التصدي للمخالفين والمفسدين خوفاً من تضليل الناس بفتاوى لا أصل لها فى الشريعة الإسلامية .

أما المثقف ثقافة غير إسلامية ، فلا يخوض فى المسائل الدينية إلا فى حدود ما اطلع عليه من كتب دينية ، أو ما وعته ذاكرته بصورة جيدة مما يسمعه من العلماء المتخصصين . ولا ينبغى أن يخوض فيما ليس له به علم بدافع الغيرة على الدين ، والحماس فى مجال الدعوة ، فقد يترتب على ذلك آثار تضر بالدعوة أكثر مما تخدمها ، وخاصة فيما يتعلق بنظم الحياة الحديثة بما فيها من تعقيدات حضارية ، وما يطفو على سطحها من صور مستحدثة ، وأشكال متعددة فى شتى المجالات .

ولهذا يجب على الشباب الذى لم يتخصص فى العلوم الدينية أن يخدم دينه ، ويحمى عقيدته بالتفوق فى مجال تخصصه ، فإن كان مهندساً ، فما يقدمه للإسلام هو إتقانه لعمله وتفوقه فى ميدان الهندسة ، حتى لا يحتاج المجتمع الإسلامى إلى طلب مساعدة من غير المسلمين فى هذا الميدان . ومثل ذلك الطبيب ، والمحاسب ، والاقتصادى ، والمهندس الزراعى ... و...و....إلخ . فإن قوة المسلمين فى هذه التخصصات تحميهم من الوقوع فى مجال التأثير

بالأجانب الذين يستعينون بهم فى هذه المجالات التى أصبحت حيوية بالنسبة للحياة المعاصرة . فإن أراد بعد ذلك أن يكون له نشاط فى مجال الدعوة إلى الله ، فليكن بسلوكه بين العاملين معه ، وأخلاقه مع المتعاملين فى حقله ، فإن لذلك صدى فى نفوسهم يفوق فى كثير من الأحيان تأثير خطب الوعاظ ، ودروس علماء الدين .

غيوم

يميل الإنسان بطبعه إلى أن يكون مركز اهتمام من حوله ، يرمقونه بأنظارهم تعجباً وانبهاراً ، ويلتفون حوله إجلالاً وإكباراً ، ويأتمرون بأمره تقرباً واستحساناً ينسبون إليه من البطولات ما يعزز مركزه بينهم ، ويعمق تأثيره فى أكبر دائرة من مجتمعهم ، ولذا نرى كثيراً من الناس يسلكون كل طريق يعتقدون أنها توصلهم إلى هذه المكانة بين الناس ، ويباشرون من الأنشطة الاجتماعية ما يكسبون عن طريقه عواطف بنى وطنهم ، ويؤثرون على عقولهم وأفكارهم .

وتختلف المجالات فى المجتمعات الإنسانية — من ناحية التأثير على الناس — باختلاف ارتباط الناس بها ، فكلما كثر ارتباطهم بمجال ما ، كلما كان هذا المجال وسيلة من وسائل الوصول إلى قلوبهم وأفئدتهم ، فما عم تأثيره فاتصلت آثاره بجميع أفراد المجتمع ، كان أنسب وأصلح للوصول إلى المكانة المرموقة ، مما كان خاصاً بطائفة دون أخرى من طوائف المجتمع ، لأن من يتناول العام فهو يخاطب كل فرد من أفراد الأمة ، أما من حصر نفسه فى مشكلة تهم طائفة معينة ، فإن تأثير نشاطه فيها لا يتعدى من تهمهم هذه المشكلة . فإذا نظرنا من هذه الزاوية إلى اهتمامات الناس ، لوجدنا أن أكثر المسائل ارتباطاً بهم : السياسة والدين ، إذ أن كل إنسان واقع تحت تأثير القرارات السياسية ، تصيبه نتائجها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وتتأثر حياته العملية والاقتصادية والاجتماعية بها ، سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر ، إذ يتوقف نظام حياته على نوع وأسلوب النظام السياسى الذى يعيش تحت ظله ، ولذا فكل فرد فى المجتمع يهتم بهذا الجانب ، على تفاوت فيما بينهم .

ولهذا نجد أن كل من يتطلع إلى مركز مرموق فى المجتمع ، بحيث يلتف الناس حوله - وكذلك من يسعى إلى السلطة والسلطان — يسير فى هذا الاتجاه ، فتراه يتحدث فى شتى الموضوعات التى لها صلة بالحكم ، من : سياسة ، واقتصاد ، ومؤسسات دستورية ، وتنظيمات حزبية .... و.....و.....وغير ذلك مما يضفى عليه هالة تجذب الناس إليه ، وتجمعهم حوله . ولما كان هذا المجال مغرياً لجميع الناس ، فقد استخدمه كل من اشرأبت عنقه إلى كراسى الحكم ، وخاض فيه كل من رام مركزاً بين أقرانه ، ومن هنا رأينا كثرة المتحدثين فى السياسة ، وسمعنا العديد من الآراء فى أكثر المشكلات تعقيداً ، حتى على من درسوا وتخصصوا فى هذا المجال .

فالحديث عن السياسة ، والفتوى فيها كلأ مباح لكل من يريد ، وساحة مفتوحة لكل مدع ، لا فرق فى ذلك بين أمى جاهل ، ومتخصص بارع فى معرفة النظريات السياسية ، والمعطيات الدولية التى لها تأثير على مجرى الأحداث واتخاذ القرارات .وتؤيد هذه الظاهرة صدق من قال : هناك مجالان يدعى كل واحد — سواء كان أمياً أو أستاذاً جامعياً — أنه خبير فيهما ، وهما : السياسة والدين . فكل إنسان — إذا ما سنحت له الفرصة — ينبرى فى الحديث عن الدين والسياسة ، حتى ولو كان لا يعرف ألفهما من يائهما ، وما ذاك إلا لأنهما مجالان يتعلقان بحياة كل إنسان ، فمن يريد كسب قاعدة جماهيرية عريضة ، فليستغل بالسياسة أو الدين .

فالدين هو المجال الثانى الذى يندفع كل الناس فى الحديث عنه ، لا رغبة فى الوصول إلى مركز دنيوى مرموق ، ولكن إشباعاً للعاطفة الدينية ، وإظهاراً — أو تظاهراً — لمعالم التقوى . فمن يتصدى للحديث عن المسائل الدينية فإنه — غالباً — ما تكون رغبته أن يعرف الناس عنه أنه حسن الصلة بالله ، فهو يحافظ على تأدية واجباته الدينية ، ويبتعد عن المحرمات التى وردت فى القرآن الكريم . والحديث فى هذه الموضوعات تأكيد للناس بأنه متدين ورع ، ولذا يخوض فى المسائل الدينية . وكثيراً ما يفتى فى أدق المسائل ، ويجزم برأى فيما اختلف فيه الفقهاء ، مما يكون له تأثير سيء على سلوك الناس ، واتصالهم بالجانب الدينى . ومن معالم هذه الظاهرة ما نراه ونسمعه من شباب لا صلة لهم بالدراسات الدينية ، ينشرون من

الآراء والتعاليم باسم الإسلام ما هو بعيد عن روح الإسلام وتعاليمه ، فهم يظنون أنهم يؤدون بذلك خدمة للدعوة الإسلامية ، وفى حقيقة الأمر يصورون الإسلام بصورة تنفر كثيراً من المجتمعات والأفراد من الدين ، مما يجعل سلوكهم هذا وسيلة للتنفير من الإسلام ، لا أسلوباً للدعوة إلى الله ، وما ذاك إلا لأنهم عاجزون عن فهم حقائق الدين وفقهه . ولذا ينبغى عدم السماح لهم بالخوض فى تفسير النصوص الدينية ، لأن ما يترتب على خوضهم فيما لا علم لهم به من فساد ، لا يتناسب مع ما يحدثونه من تأثير روحى فى المجتمع ، فهم يفسدون أكثر مما يصلحون .

فإذا جاز لكل إنسان أن يتحدث فى السياسة — لأنه ليس هناك قانون يحرم ذلك — فإنه لا يجوز دينياً أن يتحدث إنسان فى الدين بما لا علم له به ، لأن ذلك يوقعه فى دائرة عقاب الله ، فقد ورد فى القرآن الكريم ما يحرم على المتدين أن يخوض فى المجالات التى يجهلها ، فإن كان ولابد ، فيجب أن يلتزم الإنسان بالصدق فيما يتحدث به ، ولا يدلى برأى إلا فيما يعلم ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يونس : ٣٦] ، ويقول : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾[البقرة : ٤٢] ، ويقول : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، ويقول : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء : ٣٦]

فمسئولية المسلم عن كل ما يتحدث به فى المسائل الدينية كبيرة ، لأن الخطأ فيها ليس كالخطأ فى مجال السياسة ، فلو كان هناك مجال فى السياسة لتلافى الأخطاء ، أو لفقدان ما يظهر خطأ الحديث فيها بشكل واضح ، أو غياب الضمير الذى يؤنب صاحبه ، عندما يتبين أنه وقع فى الخطأ . فإن الأخطاء فى مجال الدين تختلف عن ذلك ؛ إذ يشعر المرء فى المسائل الدينية بحرج كبير ، وتأنيب الضمير ، لو ظهر له أنه أدلى برأى لا يتفق وتعاليم الإسلام ،

لأن مكانة العقيدة فى نفسه تدفعه إلى الحرص على عدم مساسها بسوء من أى نوع ، وهى نفسها التى دفعته إلى محاولة الحديث فيها ، ظناً منه أنه يتقرب إلى الله بذلك .

ومن هنا ينبغى على المسلم ألا ينساق وراء عواطفه ، فيتحدث فى المسائل الدينية بما لا علم له فيه ، حتى لا يقع فريسة تأنيب الضمير ، عندما يظهر له خطؤه ، وليكرس تلك القوة الناشئة عن غيرته الدينية فى تقديم خدمات للإسلام فى مجال عمله ، تاركاً الحديث عن العقيدة والشريعة بفروعها وتفصيلاتها إلى المتخصصين الذين يحسنون القول فيها ، بما حصلوه من علم فى فقه الكتاب والسنة .

فلو كان وضعّ الإنسان فى هذه الحياة يسمح له بالصولان والجولان فى عالم السياسة ، فينبغى أن يكبح جماح نفسه ، فلا يطلق عنان القول فى مجال الدين ، إلا إذا كان على علم وبينة بما يقول .

وعليه فليس هناك من يجوز له ممارسة الوعظ والإرشاد إلا المؤهل علمياً لهذه المهمة ، ومن هنا يمكن أن يفهم المرء ما اشترطه بعض الفقهاء فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، مِنْ أن يأذن له الإمام ، أو الحاكم بذلك ، فقد استندوا فى هذا إلى أن الإمام يستطيع اختيار من يحسن القيام بهذه الوظيفة ، ويقصدون بذلك أنه سوف يعهد بهذا الأمر إلى المؤهل علمياً ، حتى لا يحدث ما يؤدى إلى الفساد والفتن بدخول غير المؤهلين إلى هذا الميدان ، لأنهم سوف يشيعون — بجهلهم الأحكام — البلبلة بين الناس ، ويبذرون بذور الحيرة فى قلوبهم ، بتضارب أقوالهم تضارباً لا يستند إلى دليل ، ولا توجهه حكمة ، أو توضحه مصلحة حياتية أو عقدية .

فإطلاق حرية الحديث لكل الناس فى المجال الدينى له عواقب سيئة فى حقل الدعوة إلى الله ، فهو ، وإن كانت له آثار طيبة من بعض النواحى فى المجتمع ، إلا أن ما ينتج عنه من غيوم تحجب سماحة الإسلام ، وتخفى عن أنظار غير المسلمين — وكثير من المسلمين أيضاً — فاعليته فى مجالات العلوم الحديثة ، وإمكانات إسهام من يتمسك به فى بناء الحضارة المعاصرة بجميع فروعها ، مما يثقل كاهل الدعاة فى مواجهة التيارات الفكرية المعادية للإسلام .

سلوك الداعية

يرى جمهور الفقهاء أن عمل الداعية لا يتوقف على إذن من الوالى أو الحاكم ، بل يجب على كل من يجد فى نفسه القدرة على القيام بهذه المهمة بالصورة التى تخدم الإسلام ، فعليه القيام بالدعوة إلى الله ، دون أن يُؤْذَن له من شخص أو هيئة ما ، لأن النصوص التى وردت فى القرآن الكريم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر توجب على كل مسلم القيام بهذا الأمر ، مادام قادراً عليه علمياً وبيئياً ونفسياً . بل إن تعاليم الإسلام تفيد بأن كل من رآى منكراً فسكت عنه يعد عاصياً ، لأنها تحمله النهى عن المنكر أينما رآه ، وكيفما رآه .

فإذا خصص الإمام رجالاً معينين للقيام بالدعوة إلى الله ، لما يتمتعون به من علم ومعرفة ، فليس معنى ذلك سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن القادر عليه ممن لم يأذن له الإمام بذلك ، أو لم يعينهم فى هذه الوظيفة ، فإن العلماء الذين اشترطوا إذن الإمام بذلك ، لا يقصدون من هذا الشرط إلا إلى تنظيم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لا تحدث فوضى فى هذا الميدان ، أو يختفى هذا المظهر من المجتمع الإسلامى بسبب انشغال الناس بأمور حياتهم ، والسعى وراء رزقهم . ولم يقصدوا من هذا الشرط تحريم الدعوة على من لم يؤذن له فى حدود قدرته ، فلا يضع نفسه فى موضع لا يستطيع أن يؤدى فيه هذه المهمة على وجه يخدم الإسلام ، لأنه لو ظهر عجزه فلربما انقلبت النتيجة إلى ضد ما يريد وما يبتغيه من خدمة للإسلام وإسهام فى نشر تعاليمه .

وينبغى على من يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يكون ملتزماً بأحكام الله ، فلا ينصح الناس وهو بعيد عما يطلب منهم أن يفعلوه ، أو لا ينهاهم عن منكر ولسان حاله يعلن أنه لم يتخلص منه ، يقول تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٤٤] ، ويقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف : ٢ – ٣] ، فإن مما لاشك فيه أن هداية الغير

فرع للاهتداء ، وتقويم الغير فرع للاستقامة ، وأن العاجز عن إصلاح نفسه أشد عجزاً عن إصلاح غيره .

قال مالك بن دينار : " إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا ، فإن من حث على التخلى بالفضيلة ، وهو عاطل عنها ، أو أمر بالتخلى عن نقيصة وهو ملوث بها لا يقابل قوله إلا بالرد ، ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال ، بل يكون يكون موضع حيرة البسطاء ومحل سخرية فى نظر العقلاء . فإن من تناول شيئاً وقال للناس : لآ تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس منه ، واستهزءوا به ، واتهموه فى دينه وعلمه وورعه ، وّزاد حرصهم على ما نُهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ماكان يستأثر به . كذلك الداعى إذا خالف فعله قوله .

فسلوك الداعية من أكبر العوامل فى نجاح دعوته ، لأن تربية النفوس وتهذيبها مبنية على القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة ؛ إذ من المحال أن يحصل فى نفس المدعو ما ليس بموجود فى سلوك الداعية . فإذا اقتصر عمله على القول المجرد من التطبيق العملى فى ذات نفسه ، لم يكن لدعوته نصيب من النجاح ، فمثله كمثل العود من الظل ، فكما أنه من المحال أن يستقيم الظل ، مادام العود أعوج ، فكذلك محال أن يستقيم المدعوون إذا كان الداعية منحرفاً فى سلوكه ، غير ملتزم بما يقوله . قال حجة الإسلام الغزالى رحمه الله فيما كتبه إلى أبى حامد أحمد بن سلامة بالموصل : أما الوعظ فلست أرى نفسى أهلاً له ، لأن الوعظ زكاةٌ نصابه الاتعاظ ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ، وفاقد النور كيف يستنير به غيره ، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج .

ولذا قال الشاعر فى هذا المعنى :

يا أيهـــا الرجل المعلـــم غـــيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا * كيما يصح به وأنت سقيم

لا تنه عن خلق وتأتى مثلـــه * عار عليك إذا فعلت عظيم

إبدأ بنفسك فانهـــا عن غيها * فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يسمع ما تقول و يشتفى * بالقول منك وينفع التعليم

وقد وردت أحاديث تنذر من يعظ الناس ولا يتعظ بعقاب أليم ، فعن أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان ! مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه** ".

وجملة القول : إن على ولى الأمر أن يُعِدّ أناساً من الناحية العلمية ، ويكلفهم بالقيام بمهام الدعوة ، ولا يُسْقِط هذا الإجراء وجوب الدعوة على غيرهم من المسلمين ، فمن كان قادراً على ذلك فعليه القيام بالدعوة ، كما ينبغى على الداعية أن يلتزم بالسلوك الحسن ، وإلا كان لدعوته أثر سيء على العامة ، وعلى من يدعوهم إلى الإسلام من أهل الأديان الأخرى .

مناهج الدعوة

رسم القرآن الكريم ثلاثة مناهج رئيسية للدعوة إلى الله ، وحدد لكل منهج أسلوبه الذى ينبغى على الداعية أن يسلكه ، إن أراد أن يكون لنشاطه فى هذا المجال أثر طيب ، وصدى مقبول . ولا يمكن لمن يريد الدعوة إلى الله أن يؤدى واجبه فى هذا المجال على الوجه الأكمل إلا إذا كان له من الإمكانات ما يؤهله لمعرفة معالم كل منهج ، ولديه من المعرفة والثقافات المختلفة ما يمده بما يقنع المدعوين ، وما يستولى به على مشاعرهم وأحاسيسهم ، وذلك بأدلته ، وحججه ، وعرضه الشيق ، وتناوله للموضوعات التى تتناسب مع الظروف والأحوال التى تحيط به ، وقدرته على الغور فى أعماق من يدعوهم ، وذلك عن طريق فهم مشاكلهم ، والوقوف على عاداتهم وتقاليدهم ، والإلمام بخلفياتهم الثقافية ، وإدراك ما يعتنقونه من مذاهب فكرية ، وتيارات عقدية .

فما هى هذه المناهج ؟ وماذا يُطْلَب من الداعية القيام به ليكون مستعداً للسير على هداها ؟

ذكر الله ﷻ هذه المناهج فى آية واحدة ، قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وفسرها المفسرون بأن المراد من الحكمة : الكتاب والسنة ، والمقصود من الموعظة الحسنة : ما فيهما من زواجر ووقائع ، فتُذْكر للناس ، فيحذروا بأس الله تعالى . أما المجادلة بالتى هى أحسن فقد قالوا فيها : من احتاج من المدعوون إلى مناظرة وجدال ، فليكن بالوجه الحسن : برفق ولين وحسن خطاب .

غير أنى أرى أن المراد بالحكمة : هو نوع وطريقة أسلوب الداعية مع من يدعون للدخول فى الإسلام ، فهؤلاء يدعون إلى طريق الله بأسلوب عقلى ، فلا يُسْتَشْهَد بآية ولا بحديث ، لأنهم لم يؤمنوا بهذا الدليل بعد ، بل يوجه فكرهم إلى الآيات الكونية التى تدل على وجود الله ووحدانيته . ويساق لهم من النظم والتعاليم ما يبين لهم ضرورة هذا الدين لحياة الأفراد ، ولزوم أحكامه وتعاليمه للمجتمع ، إن أراد الناس حياة اجتماعية سليمة من آفات الشيخوخة البشرية ، وبعيدة عن الأمراض التى تفتك بالمجتمعات ، كالأنانية ، والعدوانية ، وعبودية المادة ، والغوص فى الشهوات والملذات المدمرة حتى القاع ، والتردى فى وديان الآفات التى تفتك بحياة الأفراد والمجتمعات .

ومن المعروف أن المستوى الثقافى للمدعوين هو الذى يحتم على الداعية أن يسلك الطريق المناسب ، ويلتزم بالأسلوب الذى يفهمه المستمعون ، فإذا كانوا على درجة عالية من الثقافة ، فيلزمه أن يرقى بأدلته العقلية إلى مستواهم ، حتى يكون لكلامه أثر فى نفوسهم ، وتصادف أدلته قبولاً فى عقولهم . وإن كانوا متوسطى الثقافة ، فعليه أن يخاطبهم بما يفهمون ، ويدعوهم بالأسلوب المناسب لمداركهم الثقافية . وفى القرآن الكريم صور متعددة لهذا المنهج ، فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكائنات ، والتأمل فيما فيها من دقائق الصنع ، وبدائع الإحكام والإتقان ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم : ٢٢] ، وقال : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ [الطارق : ٥ – ٧]

ولاشك أن هذا موجه إلى من يستطيع بقدرته الفكرية أن يتوصل إلى دقة الصنع فى الكون ، ومعجزة الخلق فى الإنسان ، لعله يهتدى بهذه الأدلة إلى الإيمان بالخالق ﷻ .

وفى آيات أخرى يوجه الخطاب إلى من هم أقل ثقافة ، فيقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج : ٧٣ – ٧٤] ، ويقول : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان : ٣]

وقد كان رسول الله ﷺ يخاطب كل إنسان على قدر ما يفهم ، ويجادله بالدليل الذى يكون تأثيره كبيراً فى نفسه ، فقد ورد أن رجلاً يدعى الحصين ، كان ذا مكانة بين قريش ، أرسلوه يوماً إلى رسول الله ﷺ ليكلمه ، حتى ينتهى عن دعوته ، فلما جاء إلى النبى ﷺ قال : **أوسعوا للشيخ** ، فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك ، أنت تشتم آلهتنا وتذكرها ؟ فقال رسول الله ﷺ : **يا حصين ! كم تعبد من إله ؟** فقال : سبعة فى الأرض وواحد فى السماء ، فقال : **فإذا أصابك الضر لمن تدعو ؟** فقال : الذى فى السماء ، قال : **فإذا هلك المال ، من تدعو ؟** قال : الذى فى السماء ، **فيستجيب لك وحده ، وتشرك معه ؟ أسلم ! تسلم** ....فأسلم الحصين .

فهذه الأمثلة توضح لنا أن على الداعية أن يستخدم الأسلوب العقلى مع من يدعوهم إلى الإسلام ، وأن يراعى حالة من يدعوه ، فإن كان عالى الثقافة ارتقى معه فى الدليل ، وإن كان أقل فليجعل دليله مناسباً لثقافته ، ومتفقاً مع متطلبات الظروف ، ومعطيات الأحوال ، كما فعل رسول الله ﷺ مع الحصين . وهذا هو مقصود المنهج الأول الذى جاء التعبير عنه فى الآية بقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾ ، فالحكمة هى استعمال الدليل العقلى مع المدعوين ، كلٌّ حسب حاله ، وطبقاً لدرجة ثقافته .

ويختص المنهج الثانى فى الدعوة إلى الله بتذكير المسلمين بآلاء الله ونعمه عليهم ، وإيقاظ وجدانهم الروحى ، وإذكاء حرارة الإيمان فى صدورهم ، حتى تظل قلوبهم معلقة بالإيمان ، وأفئدتهم مرتبطة بذكر الله ، وجوارحهم ملتزمة حدود الله . ويساعدهم على ذلك فقههم فى دينهم ، ومعرفتهم أحكام شريعتهم ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا قام الدعاة بواجبهم فى هذا المجال ، فيعلمون الناس ويفقهونهم فى دينهم ، وهذا هو ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ، أى يجب على المؤمنين — وخاصة الدعاة منهم — أن يقوموا بواجب تعليم الناس الأحكام الشرعية ، وتذكيرهم بين الحين والآخر بما يلين قلوبهم ، ويؤثر فى نفوسهم ، حتى تُسَدّ المنافذ أمام الشيطان فلا يكون له سبيلاً إلى التأثير على المؤمنين .

ومن المعلوم أن عمل الدعاة فى هذا الحقل يشبه عمل الأطباء ، فكما أن الأطباء يعالجون المرضى ، ويعلمون الناس طرق الوقاية من الأمراض ، فكذلك الدعاة يعالجون علل النفوس ، ويحمونها من الأمراض الفتاكة بالمواعظ والإرشادات والنصائح المستخلصة من الكتاب والسنة ، إذ لا تصح النفوس إلا بها ، ولا يسلم القلوب من المخاطر إلا بسماع ووعى ما فى الكتاب والسنة ، ولا تقلع النفوس عن غيها إلا بالتذكير بما أصاب المفسدين والمتكبرين ، يقول تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات : ٥٥]

فالوعظ والإرشاد هما العلاج الناجع للأمة ، يشهد على ذلك أن الأمة التى انتشر فيها الوعاظ و الخطباء تحيى بمقدار قدرتهم على معالجة الأمراض الاجتماعية ، ويشتد عودها ويسلم من الأمراض كلما وجد التيار الدينى طريقه الصحيح فى نفوس أبنائها ، فإذا كان

الواعظ ماهراً ، والخطيب حكيماً استطاع أن يسلك من الطرق فى الإرشاد ما يشفى القلوب من أمراضها ، ويوقظ الضمائر من نومها ، ويطهر النفوس من أدران النقائص والرذائل ، وينير أمامها السبل الموصلة إلى الرشد حتى ترجع عن غيها ، وتعود إلى حد الاعتدال ، وتتحلى بالفضائل والكمال .

هذا فى الجانب المعنوى الإرشادى من الموعظة الحسنة ، أما الجانب الآخر منها ، فهو جانب العليم والتفقه فى الدين ، إذ يجب على المسلمين — امتثالاً لأمر الله بأن يعظوا المسلمين — أن يكون منهم مجموعة متفقهة فى الدين ، عالمة بأحكام التشريع ، تقوم على تعليم الناس أحكام دينهم ، وفقه شريعتهم ، حتى يؤدوا عبادتهم بالصورة الصحيحة ، ويكونوا على بينة من تقييم مسائل الحياة المختلفة ، فلا تضلهم أصوات المفسدين ، ولا تنحرف بهم آراء الجهلاء والمدعين عن الطريق المستقيم .

ولابد من وجود هذه الفئة فى المجتمع الإسلامى ، لأنهم هم المنارة التى يلجأ إليها الحائرون ، والمصابيح التى يهتدى بنورها المهتدون ، فوجودهم ضرورى فى المجتمع ، فلا يجوز للمسلمين أن يتهاونوا فى إعداد هذه الطائفة المتخصصة فى شرح أحكام الله وتعليمها للناس ، حتى ولو كانوا فى حالة تحتم على كل مسلم الانخراط فى سلك المدافعين عن الإسلام فى ميدان القتال ، فقد استثنى الله من هذا الواجب أولئك الذين عكفوا على دراسة العلوم الدينية ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة : ١٢٢] ، لأن التفقه فى الدين من العوامل المؤثرة فى حياة المجتمع فى سلمه وحربه ، فهو الذى يُكَوِّن المسلم الصالح ، الذى يرعى الله — نتيجة للتربية الدينية على أيدى الفقهاء — فى عمله ، ويخشاه فى سلوكه مع الناس . وما المجتمع القوى إلا أفراداً صالحين فى أعمالهم ، مستقيمين فى سلوكهم ، إذ كلما حسنت أعمال الأفراد ، قويت الأمة بإنتاجها وإحرازها فى جميع مجالات الحياة ، وكلما استوى

سلوك الأفراد واستقامت حياتهم ، ازدادت صلابة الأمة واشتدت قوتها ، فلا يقوى عدوها على زعزعت بنيانها ، أو خلخلت تماسكها الاجتماعى .

وعليه ، فعمل الداعية — سواء كان فى مجال التعليم والتدريس ، أو فى مجال التذكير والتنبيه — أساس بنيان الأمة ، فمن يرغب فى بناء أمة قوية ، فلا ينبغى أن يهمل هذا الجانب الحيوى فى البناء .

وقد وصف الله المنهج الثالث فى مجال الدعوة بقوله : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ فقد يكون الحسن المطلوب هنا : اختيار الكلمة الطيبة التى لا تؤذى أحداً ، ولا تجرح كرامته . وقد يكون سلوك أفضل الطرق الموصلة إلى إقناع الخصم مع البعد عن الحماس والانفعال الذى قد يؤدى إلى حجب الحقيقة . وتجنب تحقير فكر من يخالف الداعية فى رأيه ، فلا يزدريه ، أو يسخر منه ، أو يسبه ، إذ مادام غرض الداعية الوصول إلى إقناع من يدعوهم بالإسلام ، فلابد أن يستميلهم ، ويكسب ثقتهم أولاً ، لأن هذا يجعلهم يسمعون قوله ، ويصغون لحجته ، ويفكرون فى أدلته .

أما إذا أغلظ القول لهم ، فإنهم ينفرون منه ، ويعرضون عن سماع حجته . فاللين فى القول مطلوب من الداعية حتى مع الذين آمنوا ورضيت نفوسهم بما يقول ، وخضعت جوارحهم لما يأمر به ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، فإذا استهان الداعية برأى من يدعوهم إلى الإسلام ، وعاب ما يعتقدون ، فلا ينتظر منهم إلا المقابلة بالمثل ، لأن الإنسان لا يسكت على إهانته ، حتى وإن تدنت طبقته الاجتماعية ، ولا يرضى السخرية بمعتقداته ، حتى وإن كانت ظاهرة البطلان للعقلاء وأصحاب الفكر السليم ، فقد نهانا الله ﷻ عن سب آلهة الكفار والملحدين ، على الرغم من بطلانها ، وعدم قيمتها فى عالم تقييم الأفكار والأحجار ، فقال تعالى :﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، بل إن القرآن

الكريم علمنا كيفية التصرف مع المعاندين إذ أصروا على عنادهم ، واستمروا فى عبادة الأوثان والأحجار ، أو استمرءوا الإشراك بالله ، فقال تعالى مبيناً ما يجب إتباعه مع الكفار :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون : ١ – ٦]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، أى إذا بلغ الداعية رسالة ربه إلى من يعبد آلهة من دون الله ، وحاجهم بالقول اللين ، واحجة الواضحة ، فأصروا على دينهم ، ولم يتجاوزوا هذا الإصرار ، فلم يحاربوا الدعوة ، ولم يقفوا فى طريق عمل الدعاة ، فلتركهم وشأنهم ، لأن مهمة الداعية هى التبليغ فقط ، فلا يتجاوزها إلى فرض الإيمان بالقوة ، يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩ ﴾ [يونس : ٩٩]

كذلك يكون الحسن فى المجادلة باتباع أسلوب المجادلين ، أى محاورتهم بالمنهج الذى يتبعونه ، فإن كانوا فلاسفة ومفكرين ، فليسلك الداعية معهم حواراً فكرياً حول طبيعة الكون ومصدره ، ومركباته المتناسقة فى تفاعلها وانسيابها ، كما يناقشهم فى مفهوم الحياة وغاياتها ، وعلاقة الإنسان بما حوله من ظواهر طبيعية ، وما فى داخله من تركيبات فسيولوجية ، وعوارض نفسية وروحية . وإن كانوا اقتصاديين فليبين لهم أحكام الإسلام وتشريعاته فى عملية المال فى المجتمع ، وكيفية توزيعه على أفراده . وإن كانوا اجتماعيين فيشرح لهم أثر الإسلام فى تكوين الخلايا الاجتماعية ، وأهمية تعاليمه فى تنظيم العلاقات بين جميع أطراف الجنس البشرى ... وهكذا مع كل مجموعة يكون حديثه مطابقاً لاهتمامات

أفرادها وتخصصاتهم ، حتى العامة من الناس ، فإنه يسلك معهم طريقاً تتفق مع معلوماتهم ، وتتناسب مع قدرتهم الفكرية .

أما إذا تجاوز المدعوون حدود الجدل الفكرى ، فاعتدوا على المسلمين ، أو حاربوا الدعاة بأساليب تخرج عن دائرة الحوار الفكرى إلى استعمال القوة واستخدام السلطة ، فإن حسن المجادلة فى هذه الحالة خارج عن طاقتهم وتخصصهم ، بل يكون ذلك واجب الحاكم ، أو ولى الأمر ، فهو فى هذه الحالة مدعوّ إلى الدعوة بما يملك من سلطان وقوة ، يقول تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج : ٣٩ – ٤٠]

فالمنهج الثالث ، وهو : **- المجادلة بالتى هى أحسن -** يتضمن القول الحسن ، والأسلوب اللين ، واختيار الأدلة التى تتفق مع درجة ثقافة المجادلين ونوع تخصصهم ، كما يتضمن استعمال القوة ، عندما يعلن الخصم العداوة ، ويستخدم سلطانه وقوته لمنع الدعاة من نشر الدعوة ، أو يستخدم جبروته فى تعذيب من آمن بالإسلام والتنكيل بهم .

كان أسلوب الدعوة منذ صدع محمد ﷺ بالأمر متسماً بالحكمة ، فلم يُعْرَض الإسلام على أصحاب الأديان والمعتقدات الأخرى إلا من زاوية العقل ، ولم يُطْلَب منهم الاعتراف بتعاليمه وأحكامه إلا بناءً عن اقتناع وتسليم به ، لا خضوعاً لتقليد ، أو خوفاً من سلطان وتعذيب . كذلك تعهد الرسول ﷺ أصحابه بالرعاية ، فعلمهم أحكام الله بأسلوب لين ، وأيقظ مشاعرهم الدينية بمواعظ هزت أفئدتهم ، ورقق قلوبهم بتلاوة وحى الله عليهم ، وقوم سلوكهم بما ضربه لهم من أمثال : سلوكاً ، وقولاً ، واستشهاداً بما حدث مع الغابرين ،

كما أفحم المجادلين والمعاندين بقوة بيانه ، ونصاعة حجته ، وحسن اختياره الأسلوب المناسب ، والمنهج المؤثر فيهم .

كان هذا المنهج فى التبليغ تشريعاً للدعاة من بعده ، يسيرون عليه إن أرادوا لدعوتهم النجاح والاستمرار ، لأنه يغطى جميع فئات البشرية ، سواء منهم الذى يسمع نداء الدعوة لأول مرة ، أو من آمن وانخرط فى سلك المسلمين ، أو من وقف معانداً ومكابراً ، وكذلك من تجرأ فأعلنها حرباً على الإسلام والمسلمين . فلكلٍّ أسلوب يخاطب به ، ومع كلٍّ طريقة يجب على المسلمين اتباعها ، يقول الإمام الغزالى فى كتابه : " القسطاس المستقيم " : إن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة قوم ، وبالمجادلة قوم . فإن الحكمة إذا غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم ، كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير ، وإن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة ، اشمأزوا منها كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى ، وإن من استعمل الجدال مع أهل الجدال ، لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن ، كان كمن يغذى البدوى بخبز البر وهو لم يألف إلا التمر ، أو البلدى بالتمر وهو لم يألف إلا البر ".

غير أن بعض الباحثين يرى أن هذا التفسير ليس تقسيم مجموعات البشر بالنسبة لمواقفهم من الدعوة ، بل إنه بيان لحالات تعترى الشخص الواحد ، إذ فى الإنسان ثلاث قوى : القلب ، والعقل ، والعاطفة ، ولكلٍّ أسلوب ومنهج تخاطب به . ولما كان الإسلام ديناً عاماً لكل الناس ، وهو أيضاً دين منطق وحكمة ، ويهدف إلى تربية جميع حواس الإنسان ، كان من الطبيعى أن يخاطب كل فرد من أفراد المجتمعات الإنسانية ، ويتجه فى الوقت نفسه إلى تربية كل القوى النفسية ويهذبها لتتضامن جميعها فى الإيمان وفى تربية الشخصية الإنسانية .

وعليه ، فأسلوب الدعوة ينبغى أن يكون مرناً ، فيتشكل حسب الظروف والملابسات كى يصلح لطوائف الناس ، عندما تبرز المواجهة التى تظهر فى المجتمعات الإنسانية حين يُدْعَى الناس إلى اعتناق دين جديد ، أو يشيع فى المجتمع تيار فكرة مستحدث ، فيبدأ الداعية بعرض الدعوة بأسلوب عقلى ، فإن آمن المدعو ، علّمه أحكام الشريعة ، وأيقظ مشاعره

الدينية بالموعظة الحسنة ، أما إن كابر وجادل ، تعامل معه الداعية بالأسلوب المناسب ، حتى لا يخرج فى دعوته عن المنهج الحسن .

كما ينبغى على الداعية أن يكون مستعداً فى كل وقت للرد على أسئلة كل من اعترته بعض الشبهات ، فإن كانت مجرد استفسار نتجت عن غيوم فكرية ، أزيلت بالأسلوب العقلى ، وإن تمكنت من المعترض ، فدفعته إلى المجادلة دفاعاً عن تيارات فكرية مضللة ، فعلى الداعية مجادلته بالتى هى أحسن ، وإن كان بعيداً عن هذا وذاك ، فليتعهده الداعية بالموعظة الحسنة ، وتعليمه أحكام الله .

وليتذكر الدعاة دائماً قول الله تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه : ٤٤]

تأهيل الدعاة

يحتاج كل مذهب — بل كل تيار فكرى يحمل طابع الانتشار ، أو يحرص معتنقوه على أن يؤمن به الناس — إلى من يحمله إلى المدعوين ، أى إلى من يسمعهم نداءه ، وذلك بعرض مبادئه ، وشرح أفكاره لهم فى محاولة إقناعهم به . وهؤلاء يطلق عليهم أسماء عدة ، فمنهم من يسمى : المتحدث باسم المذهب ، أو فيلسوف الحزب أو الطائفة ، أو أمين فكر الجماعة . ويعرف فى مجال الأديان باسم : الكاهن ، أو القسيس ، أو المبشر ، أو البراهما . أما فى الإسلام فيسمى : داعية ، لأنه يدعو الناس إلى دين الله ، مستخدماً فى ذلك كل وسيلة تؤدى إلى إقناعهم بما يقول ، وتصديقهم لما يبينه لهم من أحكام الله وتشريعاته .

ومما لاشك فيه أن كل من يتصدى لهذا العمل لابد أن تتوافر فيه شروط عدة ، بعضها يرجع إلى شخصيته وتكوينه الطبيعى ، والبعض الآخر يتعلق بثقافته وإلمامه بمبادئ ما يدعو إليه ، وإتقان تفصيلاته ، ومعرفة فروعه معرفة تامة . وسنترك الآن الحديث عن مواصفات شخصيته ، وأبعاد تكوينه الطبيعى حتى يحين أوانه ، عندما نتناول وسائل الدعوة بالشرح والبيان ، ونقصر حديثنا على معالم ثقافته ، وتمكنه من معرفة ما يدعو إليه .

فمن المعروف أن من يتصدى للدعوة إلى الاقتناع بفكر ما ، لابد أن يكون قادراً على شرح مبادئ هذا الفكر ، وإلا عجز عن إقناع من يدعوه ، مما يؤثر على وضع ما يدعو إليه ، ويشوه صورته بين الناس ، ولهذا يحرص أصحاب كل مذهب ودين على تكوين مجموعة من الناس تكويناً علمياً للقيام بهذه المهمة . وكلما كان المؤهَّلون لهذا العمل على درجة كبيرة من الثقافة ، كلما كان نجاحهم أكبر ، وقدرتهم على الإقناع أقوى ، وأثرهم فى سرعة انتشار مذهبهم أكثر وضوحاً ، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت برامج الإعداد وافية بالغرض الذى يسعى إليه أصحاب الفكر . فإذا أخذنا ما يتعلق بموضوعنا ، وهو الدعوة إلى الإسلام ، فإننا نرى أنه يجب أن يتضمن برنامج إعداد الدعاة : دراسة القرآن الكريم والحديث النبوى دراسة عميقة ، بحيث يُؤَهَّل الداعية تأهيلاً يمكنه من فهم النصوص ، واستنباط الأحكام منها . ويترتب على هذا ضرورة معرفته بالمسائل الفقهية معرفة تامة ، لأن هذه المواد ، وهى : التفسير والحديث والفقه ، هى بضاعته التى يعرضها للناس ، فإذا لم يكن متمكناً منها كان نشاطه فى حقل الدعوة الإسلامية معوقاً لانتشار الإسلام ، إذ أن عدم تمكنه من هذه العلوم يلقى ظلالاً قاتمة على طريق الدعوة ، فيضل بسببها مسلمون ، ويكون مصدر قوة للمتشككين والمترددين ، وحاجزاً يعجز غير المسلم عن اجتيازه ليصل إلى ساحة الإسلام .

كذلك يحتاج الداعية إلى إلمام بسيط بمبادئ علم النفس وعلم الاجتماع ، حتى لا يضل فى فهم الحالات النفسية لدى الأفراد ، ويتعثر فى تفسير الظواهر الاجتماعية التى تؤثر على اتجاهات الناس وسلوكهم ، فتشكل عاداتهم وتقاليدهم ، إذ أن عدم معرفته بهذه الأوليات يجعله يتخبط فى معالجة ما يراه مخالفاً للإسلام فى المجتمع ، وجهله بقوانين الاجتماع يصيبه بالعجز عن توجيه حركة المجتمع ناحية الإسلام ، وربما يدفعه إلى تجنب الحديث فى هذه المسائل التى هى من صميم حياة المجتمعات الإنسانية ، والانعزال فى زاوية ، بعيداً عما يشغل بال الناس ، مقتصراً على ترديد ألفاظ بعيدة عن واقعهم ، غريبة على مسامعهم ، عديمة الفائدة فى توجيه سلوكهم .

ولاشك أن ذلك يدفع المسلم إلى عدة تساؤلات ، هى : **هل ما يعرضه الإسلام ضرورى وصالح للحاضر والمستقبل ، كما كان صالحاً للماضى ؟ أم هو حكاية**

عن ماضٍ يتسلى به الداعية ، أم ضرب من الحقيقة والخيال ، أم منهما معاً ، يتلهى به فى الحاضر ؟ أم هو حدس للمستقبل يشد به الإنسان شغلاً عن حاضره ومتاعبه ، وربطاً بآمال وأمانٍ عراض ؟

إن الداعية الناجح هو الذى يحمل السامع على ترك هذه التساؤلات ، ويفرض عليه الاقتناع بما يقوله له ، وسلوك ما يطلب منه ، وذلك لا يكون إلا إذا فهم الداعية هموم الناس وآلامهم ، وحاول علاجها بأسلوب لا يحلق بهم فى سماء الخيال ، ولا يطير بهم فى عالم اللامعقول ، بل بما رسمه الإسلام من واقعية ، وبما حدده من أساليب للحياة ، تحفظ كرامة الإنسان ، وتحافظ عليه من الانهيار ، حتى يقتنع المدعوون بأن ما يدعو إليه الداعية ضرورى لحاضرهم ، ولازم لبناء مستقبلهم .

فإذا نجح المهتمون بالدعوة إلى الإسلام فى تأهيل فريق من المسلمين تأهيلاً علمياً ، بحيث يستطيع كل واحد من المؤهلين لهذا العمل ، أن يكسب ثقة الناس بما لديه من معلومات دينية – سواء كان ذلك تفسيراً لآيات القرآن الكريم ، أو بياناً لحديث رسول الله ﷺ ، أو توضيحاً لما جاء من أحكام وتشريعات فى مجال الفقه الإسلامى ، مع قدرته على ربط ذلك كله بحياة الناس أفراداً وجماعات – تمكنه من توجيههم إسلامياً ليتخطوا ما يعترض طريقهم من عقبات ، وما يصادفهم من أحداث فى جميع مجالات الحياة ، فقد أدوا ما عليهم فى سبيل المحافظة على عقيدة المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، وإرشاد المسلمين فيما يجب عليهم عمله فى شتى شئونهم الحياتية .

غير أن عملهم فى مجال إعداد الدعاة لا يقتصر على هذا الجانب ، بل لابد من بذل الجهود لتأهيل فريق من الدعاة يكون قادراً على عرض الإسلام على غير المسلمين ، وذلك يتطلب – إضافة إلى المنهج السابق – إعدادهم إعداداً عقلياً ، بمعنى أنه ينبغى عليهن أن يدرسوا الفلسفة بجميع فروعها ، من : منطق ، وأخلاق ، وعلم نفس ,,, وغير ذلك مما له صلة بالعملية العقلية عند الإنسان ، لأن سلاحهم مع غير المسلمين هو العقل ، إذ هو أداة التفاهم ، وركيزة الأدلة المشتركة بين جميع الناس ، فالمحاجاة ، والمجادلة لا تسير إلا فى القنوات العقلية . فإذا لم يكن الداعية ملماً بهذا الفن ، ضعف عرضه للمبادئ الإسلامية ، ووهنت حجته فى مواجهة أدلة الآخرين واعتراضاتهم ، بل قد يكون فى ضعفه :

- صد عن سبيل الله ،
- وإبعاد لمن لديه الاستعداد لقبول الإسلام ، لأن الصورة المهلهلة التى يظهر بها الداعية الضعيف علمياً كفيلة بإطفاء وميض النور الذى يدفع بعض غير المسلمين إلى الميل للإسلام ، والانجذاب نحوه ،
- وعامل من عوامل التشويش على أفئدة من يظهر فى قلوبهم وميض من نور يهديهم إلى أول طريق الإسلام .

ولهذا تكون الآثار السلبية لضعف الداعية فى نفوس غير المسلمين بعيدة المدى ، وعميقة الغور بحيث تقطع — فى غالب الأحيان — خط الرجعة على من ابتعد عن الإسلام بسببها ، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من اتخاذ العقيدة الإسلامية ديناً له ، ومال إلى اتخاذ نظامها منهجاً وأسلوباً لحياته .

ومن هنا يجب على المهتمين بإعداد الدعاة العناية بهذا الجانب عناية تامة ، بحيث يضعون فى مناهج إعدادهم : الفلسفة اليونانية ، والتيارات والمذاهب الفلسفية المعاصرة على اختلاف مناهجها ، والظواهر الفكرية على الصعيد العالمى ، أياً كان موطنها ومضمونها ، والتاريخ الثقافى لمن يدعونهم بما فيه من عاداتهم وتقاليدهم ، وعقائدهم ، ومذاهبهم الدينية . فإن لم يفعلوا ذلك فإن من الأولى عدم طرق هذه المجالات ، لأن الامتناع عن العمل فى مجال الدعوة خارج المجتمعات الإسلامية فى حالة ضعف الدعاة علمياً خير من إظهار السوءات التى قد تترك آثاراً لا تمحى لأجيال عدة ، وقد تعرقل عمل المؤهلين إذا خاضوا هذا المجال بعد أن شوه الضعفاء من الدعاة صورة الإسلام فى أذهان الناس .

فسبيل الدعوة إلى الله فى مجال غير المسلمين يتطلب من الداعية أن يكون ملماً بثقافة تزيد على عمل من يعمل فى حقل الدعوة داخل المجتمع الإسلامى ، أو من يقتصر عمله على تعليم المسلمين وتثقيفهم ، لأن طبيعة المواجهة مع الآخرين تتطلب إعداداً خاصاً . وينبغى ألا تقتصر مناهج هذا الإعداد على قوالب ثابتة ومعينة ، بل يجب أن تتغير طبقاً لظروف وأحوال المدعوين ، وتبعاً لمتطلبات الأحوال والأزمات ، سواء كان ذلك على المستوى المحلى ، أو على الصعيد العالمى ، ولذلك يتحتم أن تكون برامج إعداد هذا النوع من الدعاة

متحركاً فى كل اتجاه ، كى يلائم كل ظرف ، ويتواءم مع مقتضيات كل بيئة ، ومعطيات كل عصر .

خلاصة

ليس من السهل قيادة الإنسان فكرياً ، فهى من أصعب الأمور التى تعترض أصحاب الدعوات والمذاهب الفكرية ، لأن الإنسان على الرغم مما يعرف عنه بأنه الكائن الحى الذى يتصرف بحرية ، إلا أنه شديد الارتباط بعاداته وتقاليده الموروثة ، ومتمسك إلى أقصى حد بدين آبائه وأجداده . ولهذا عانى الأنبياء والرسل كثيراً فى سبيل إقناع المدعوين ببطلان عقيدتهم ، وضلال أفكارهم التى ورثوها عن الأجداد ، بل إن هذا الجانب استغرق وقتاً أطول ، وأخذ جهداً أكبر من الدعاة ، إذا قيس بنشاطهم فى مجال تعلم المؤمنين عقائدهم وأحكام شريعتهم ، فمن ينظر فى تاريخ الدعوة الإسلامية يجد أن محاورة أهل مكة امتدت ثلاث عشرة سنة من سنى الرسالة التى بلغت ثلاثاً وعشرين سنة . كذلك نرى أن آيات الأحكام فى القرآن الكريم أقل من الآيات التى ركزت على بيان وجود الله ووحدانيته ، وشرح أسس العقيدة ، وصور المجادلات والمحاورات مع المعاندين .

ومن الملاحظ أن منكرى الرسالة لم يكونوا على درجة واحدة من الذكاء ، ولم تكن محاورتهم على نمط فكرى واحد ، بل تباينت أسباب معارضتهم ، واختلفت أساليبهم فى الرد على رسول الله ﷺ ، فتارة يعللون إصرارهم على عبادة الأصنام بأنهم وسطاء لهم عند الله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر : ٣] ، وأخرى تأبى عقولهم أن تتصور وحدانية الله : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٠] ، ثم يخبر القرآن الكريم أن معارضتهم لم تكن على أساس منطقى ، ففهم لا يكذبون الرسول ﷺ ، لأنه اشتهر بينهم بالصدق ، ولكنهم يجحدون لغير ما سبب ، يقول تعالى :﴿ قَدْ

نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنعام : ٣٣] ، بل إنهم عندما أعيتهم الحيل ، وعجزوا عن إبداء سبب معقول ، رموه بالسحر تارة ، يقول تعالى :﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزخرف : ٣٠] ، وتارة ادعوا أن ما يخبرهم به أساطير الأولين ، تلقاه ممن لديهم علم بأخبار السابقين ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾[الفرقان : ٤ – ٦] ، بل إنهم أنكروا أن ينزل القرآن على رجل بسيط من القوم : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف : ٣١ – ٣٢]

كما أنكروا أن يكون الرسول الذى اصطفاه الله يباشر من الأعمال ما يباشره بقية الناس ، وتساءلوا عما إذا لم يكن من الممكن إنزال ملك معه ، ليعينه على هذا العمل ، أى أنهم لا يؤمنون إلا إذا كان الأمر على ما يتصورون : ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ

إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان : ٧ – ٩]

وتوضح هذه الصور أن المجادلين ليسوا على درجة واحدة من الذكاء ، كما أنه ليس لديهم دافع واحد محدد يمنعهم من الإيمان بالرسالة ، ولهذا جاءت اعتراضاتهم متعددة فى صورها ، ومتفاوتة فى أسباب عدم إيمانهم ، إلى حد أن بدت فى كثير من الأحيان ضرباً من العناد والمكابرة .

وهذه صورة صادقة لرد فعل الناس تجاه أى فكر جديد ، وفى مواجهة أى دين تحمل مبادئه طابع التغيير لما عليه القوم من عادات وتقاليد . ولا تقتصر هذه الظاهرة على المجتمعات القديمة ، بل إنها لازمة من لوازم المجتمعات البشرية ، وصفة من صفاته فى كل العصور والأزمان . وليس ما قوبل به الأنبياء من حجج وبراهين فريداً من نوعه ، أو ظاهرة لا تتكرر ، بل هى طبيعة كل مدعو إلى التسليم بعقيدة جديدة عليه .

فلا يخلو مجتمع من هذه الظاهرة مهما اختلفت العصور ، وتفاوتت الشعوب ، وتباعدت أقطار الأرض وبقاعها ، ولهذا ينبغى أن يهتم القائمون على إعداد الدعاة بتدقيق الاختيار فيمن يؤهلونهم لهذه المهمة ، وهى مهمة محاجاة المعاندين والمستكبرين ، ومصارعة كل من يتحفز لإلقاء الشبهات فى مجال العقيدة ، والتشكيك فى فاعلية النظام الإسلامى فى الحياة المعاصرة ، فلا يختارون لهذه الدراسة إلا من كان عنده قدرة من الذكاء تمكنه من استيعاب أساليب القوم ، وإجادة الرد عليهم علمياً ، وإتقان عملية المناورة الكلامية ، لأن من يظهر عجزه فى هذا الميدان لا يصلح أن يكون مدافعاً عن الإسلام على الإطلاق فى ميادين المعارك الكلامية ، وساحات الحجج والبراهين العقلية ، ومواطن تلاطم التبريرات والتعليلات الوهمية ، يقول تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، ولا يقدر على ذلك سوى نوعية من الدعاة ، اختيرت اختياراً دقيقاً ، وأُهِّلَت تأهيلاً حسناً .

يبدو أنه قد أصبح واضحاً لنا أن مناهج الدعوة ثلاثة : منهج عقلى ، ومنهج وعظى تعليمى ، ومنهج مواجهة بالحجة والبرهان ، وأحياناً بالمناورة والنزال فى ساحة المعركة ،

حسب طبيعتها ومتطلباتها . وقد نص القرآن الكريم على هذه المناهج فى قوله تعالى :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥]

فالمفهوم من الحكمة هو عرض الدعوة على الناس من الجانب العقلى لإقناعهم بأحقيتها وسلامتها كدين ينبغى أن يعتنقه الإنسان ، ويتخذ مبادئه نظاماً فى حياته .

والمقصود من المنهج الوعظى التعليمى بيان مبادئ الدين لمن آمن ، وتعليمه أحكامه وتشريعاته ، حتى يؤدى عبادته على وجه صحيح ، ويسلك فى حياته طريق الإسلام . ويصاحب هذه العملية غرس الروح الدينية فى المسلم ، وتهذيب أخلاقه ، وشحذ همته نحو خدمة الإسلام ، وتصفية نفسه من شوائب المادية ، وأدران الأنانية . ولا يكون ذلك إلا بالقول اللين ، واللفظ المؤثر فى نفوس الناس وأرواحهم ، والأسلوب الروحانى الذى يؤثر فى عواطف الناس ، ويحصنهم من الوقوع فى مواطن الزلل ومسالك الشيطان .

أما المجادلة بالتى هى أحسن فهى مواجهة المعاندين والمكابرين الذين لا يألون جهداً فى محاربة الإسلام بكل الطرق الممكنة لديهم ، فتارة يلقون الشبهات لإدخال الشك فى قلوب المؤمنين ، وتارة يقذفون الدعاة وصالحى الأمة باتهامات لتشويه صورتهم أمام الناس ، حتى لا يكون لهم تأثير فى مجال لدعوة ، وأخرى يعلنوها حرباً كلامية فى وجه الدعاة ، قد تتحول إلى مساجلات ومحاورات تؤدى إلى صدام مسلح ...

فينبغى على الدعاة أن يواجهوا هؤلاء بما يتناسب مع الظروف والملابسات ، فإن اقتضى الأمر قرع الحجة بالحجة فعليهم ذلك ، وإن اضطرتهم الظروف إلى استعمال طرق أخرى ، فما عليهم إلا استعمالها دفاعاً عن الدين ، وهم فى كل طريق يسلكونها متبعون ما رسمه الإسلام للدعاة .

فطلب القرآن الكريم من المسلمين أن يجادلوا خصومهم بالتى هى أحسن ، لا يخرج عن سلوك المنهج الذى يتطلبه الموقف ، وتحتمه الظروف ، وتقتضيه ملابسات المواجهة .

ومما لاشك فيه أن لكل منهج أناساً يستطيعون العمل به ، فالمنهج الوعظى التعليمى يتطلب من الداعية :

- أن يكون عالماً بأحكام الشريعة الإسلامية وتعاليمها ، وبتاريخ المسلمين وأخبارهم ,
- وأن يكون ملماً بقدر كبير من علم النفس والعلوم الاجتماعية بما يساعده على تأدية مهمته على الوجه الأكمل .

ويتطلب المنهج العقلى أن يدرس الداعية علاوة على ما تقدم :

تاريخ الفكر البشرى ، ويقف على مضمون ومناهج الاتجاهات الفكرية من فلسفة ، ومنطق ، وأخلاق ، وغيرها مما له صلة بالعملية العقلية ، القديم منها والمعاصر ، حتى تتكون لديه الملكة العقلية التى تمكنه من عرض الإسلام على غير المؤمنين من زاوية العقل ، لا من زاوية النص .

أما المنهج الثالث وهو ما عرف بالمجادلة فيتطلب إضافة إلى ما تقدم :

معرفة أساليب المحاورة فى تاريخ الفكر البشرى ، وخاصة ماكان بين الأنبياء ومعارضيهم ، لأن ذلك يؤهله للقيام بهذا العمل على الوجه المطلوب . وكلما كان الداعية متمكناً من معرفة أساليب الحوار الفكرى على امتداد التاريخ البشرى ، ومتقناً لما دار بين الأنبياء والمعارضين ، مع فهمه لخلفيات كل موقف ، كلما كان قادراً على مواجهة المعارضين .

وعليه فمجالات الداعية ثلاثة :

- دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ،
- وشرح تعاليم الإسلام للمسلمين ، وتذكيرهم بما وعد الله الطائعين ، وأعده للمذنبين ،
- ومواجهة المعاندين والمعارضين .

ويفهم من هذا أن حقل عمله ثلاثة أصناف من الناس :

- مسلمين ....

- غير مسلمين لا يعرفون شيئاً عن الإسلام ،
- غير مسلمين من المعارضين والمناوئين للإسلام ، وكذلك مسلمين رانت على قلوبهم شبهات المعارضين للإسلام .

لكن قد تجتمع هذه الأصناف فى المجتمع الإسلامى ولدى المسلمين ، إذ يلاحظ أن هناك فريقاً من المسلمين يميل إلى عدم التسليم بشيء من المبادئ والتعاليم إلا إذا أقرها العقل ، فيجب على الداعية أن يجنح إلى استعمال الأدلة العقلية مع هؤلاء ، حتى يزيل ما علق فى أذهانهم من شبهات .

كما أن هناك فريقاً آخر من المسلمين وقع تحت تأثير تيارات فكرية أجنبية ، فطفق يثير الشبهات حول تعاليم الإسلام ، فيجب على لداعية أن يسلك المنهج الثالث مع هؤلاء .

وعلى المهتمين بإعداد الدعاة أن يأخذوا بعين الاعتبار طبيعة التجمعات السكنية ، ودرجة ثقافة أفرادها ، فيرسلوا الداعية المؤهل تأهيلاً يتناسب مع ما لدى القوم من خلفيات ثقافية وتيارات فكرية ، كما أنه ينبغى على الداعية من جانب آخر أن يراعى فى دروسه ما يحتاج إليه المدعوون ، فيتناول من الموضوعات ما يتناسب مع ثقافتهم وفكرهم واهتماماتهم ، آخذا بعين الاعتبار أنه بمثابة اجندى فى الميدان ، فهو لا يستعمل سلاحه إلا بالقدر الذى تمليه عليه ظروف المعركة ، فلا يتقدم حيث يجب عليه التريث ، ولا يولى الأدبار فى الظروف التى تحتم عليه مواصلة الزحف إلى الأمام . ومن المسلم به أن مَنْ أُهِّلَ تأهيلاً عالياً يستطيع التعامل مع الطرف الآخر بحكمة واقتدار .

ولهذا نركز دائماً ، وباستمرار ، على وجوب العناية بتأهيل الدعاة تأهيلاً عالياً حتى يكون لعملهم أثر طيب على الفرد والمجتمع : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩ - ٩٠]